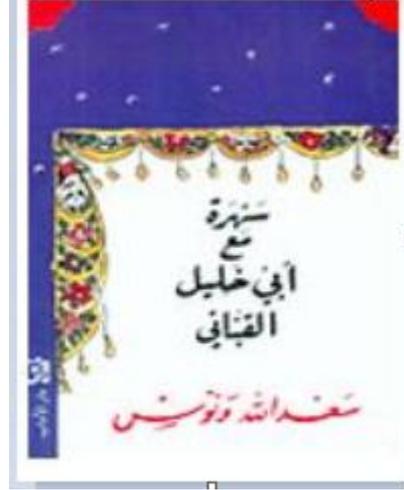


تحليل المؤلف المسرحي



2 القراءة التحليلية:

سهرة مع أبي خليل القباني " مسرحية يتداخل فيها الحكيم فنجده يرتكز على نصين متداخلين وهما: نص تخييلي فني يتعلق بمسرحة قصة هارون الرشيد مع غانم بن أيوب وقوت القلوب ونص واقعي يرتبط بالتجربة القبانية ومسرحه النهضوي الريادي. لذلك، تتضمن المسرحية عقدتين: العقدة الغرامية والعقدة التاريخية.

أ- العقدة الغرامية:

يستلهم أبو خليل القباني من كتاب ألف ليلة وليلة قصة غرامية تتعلق بغانم بن أيوب الذي خرج من الشام ليتاجر في تجارة أبيه ، ولما وصل العراق حقق كثيرا من الأرباح والفوائد والمكتسبات المادية ، لكن صديقه سيموت في الطريق ويضطر إلى دفنه في إحدى قبور بغداد مدينة السلام. وعندما انتهى الدفن عاد المشيعون إلى المدينة وتأخر في البكاء على صديقه وتأمل الموت. ولما عاد إلى المدينة وجد أبوابها قد أغلقت؛ مما دفعه الأمر للعودة إلى المقبرة حيث صديقه ليختلي في ذلك المكان. وفجأة، يرى مجموعة من العبيد يحملون صندوقا يضعونه داخل المغارة، وبعد ذهابهم نزل غانم من الشجرة التي كان يتستر بها ونزل إلى الصندوق معتقدا أن فيه كنوزا وأموالا. بيد أنه سينبهر عندما يجد داخل الصندوق جارية حسناء ناصعة الجمال والبهاء، نادرة الحسن والصفاء. وعندما أخرجها من الصندوق،

استغربت قوت القلوب لهذا الوضع الغريب وأعجبت بشجاعة غانم ومروءته وعفته وأخلاقه السامية، فانجذب كل واحد إلى الآخر: عشقا وحباً ووصالاً.

فقرر غانم أن يتزوجها، لكن قوت القلوب أخبرته بأنها جارية خليفة المسلمين هارون الرشيد، وأن زوجته زبيدة دفعت بها الغيرة بتنسيق مع عجوز إلى إبعادها ونفيها و محاولة قتلها قصد التفرد بالخليفة. وفي مكان آخر ألا وهو القصر، تدبر زوجة هارون الرشيد مأتماً لدفن قوت القلوب بعد أن أعلنت وفاتها بتدبير من العجوز قصد إبلاغ الخليفة بالنعي. ولما وصل الخليفة وجد الجواري والعجوز الشمطاء يبكين قوت القلوب التي كان يحبها الخليفة حبا جنونيا إلى درجة إهماله لواجبات الدولة وتعطيل مصالح وقراره أن يعلن الحداد في البلاد عاما كاملا. ولكن الخليفة سيتصنت إلى جارتين تكشفان أن زبيدة قامت بحيلة ذكية مع العجوز لإبعاد الجارية الحسنة التي ذهبت مع عشيقها غانم إلى الشام، والهدف من كل ذلك اختلاء زبيدة بهارون الرشيد وإبعاده عن الجواري الحسنات الموجودة في القصر بدافع الحسد والغيرة. وأخذت الحمية هارون الرشيد وركبه الغضب فطلب من جعفر ومسرور أن يحضرا الجارية قوت القلوب وأن يقتلا غانم ولو كان في باطن الأرض ماداما ارتكبا خطيئة الوصال غير الشرعي. وعندما أحضرت الجارية الجميلة سجنها الخليفة وقرر قتلها.

وعندما حان وقت الإعدام، وضع على عينيها غطاء استعدادا لتنفيذ القتل. وفي تلك اللحظة، بدأت تتاجي حبيبها غانم وتصفه بالعفة والشرف وبراءة حبهما وعدم إفراطها في عرضها وشرفها. آنذاك سمعها هارون الرشيد ففك أسرها وطلب منها أن تسأله ما تريد، فاختارت أن تتزوج من حبيبها غانم فقبل الخليفة وشجعها على ذلك وطلبت منه أن تسعى جاهدة للبحث عنه بعد أن عبث الخليفة بممتلكات أسرته في الشام وخرجت هائمة للبحث عن غانم. وبعد تجوال وبحث وتنقيب، توصلت قوت القلوب إلى عشيقها غانم الذي بدوره وجد أمه ظهرة وأخته فتنة. وقررا الزواج بمباركة هارون الرشيد الذي أراد بدوره أن يتزوج أخت غانم الحسنة وهي فتنة. فكانت الفرحة عارمة، إذ حظي غانم وقوت القلوب بكثير من الأعطيات والمنح المالية. وأصبحا سعيدين في ظلال العش الزوجي. وهكذا، انتهت القصة الغرامية ذات الملمح التراثي بنهاية سعيدة قوامها جمع الشمل و تحقيق الزواج.

ب- العقدة التاريخية:

يستقرىء سعد الله ونوس في المستوى الموضوعي الثاني التجربة المسرحية لأبي خليل القباني من خلال الاعتماد على المعطيات التاريخية والوثائق النادرة والقليلة الموجودة لديه إلى أن جعل هذا المستوى المسرحية نصا وثائقيا ومسرحية تسجيلية أو تحقيقا ريبورتاجيا عن فن المسرح ولكن بطريقة درامية أو أدبية تغلب عليها سمات الكتابة الصحفية. ومن ثم، يعود بنا الكاتب إلى منتصف القرن التاسع عشر في ولاية عربية من الولايات التابعة للدولة العثمانية أو الرجل المريض وهي ولاية سوريا وبالضبط في دمشق بأجوائها الداكنة وأصالتها العريقة. ومن المعلوم جدا أن الدولة العثمانية فرضت على الشام سياسة استبدادية حديدية قائمة على القهر والقمع في عهد الخليفة المطلق عبد الحميد الثاني.

وقد حولت سوريا إلى إقطاعية للاستغلال ومص دمائها ونهب خيراتها وإذلال سكانها وتجويع شعبها وإرسال أبنائها إلى ساحات الحروب التي خاضتها الإمبراطورية ضد

الشعوب المجاورة ولاسيما روسيا. وقد خرجت الإمبراطورية منها بهزائم متوالية أثرت على الولايات العربية ونتج عن ذلك ظهور جمعيات ومدارس التعليم والحركات السياسية المناوئة للإمبراطورية وحاكمها المستبد عبد الحميد الثاني الذي عطل الدستور وقتل الوطنيين الأحرار ورمى الكثير منهم في قاع البوسفور. وكان تعيين الولاة في سوريا ينم عن عبث وسوء تسيير وفساد في الحكم بالعاصمة الآستانة، حيث كان الولاة يعينون بالرشوة مما يدفعهم ذلك إلى الفساد وعدم الاهتمام بمصالح الرعية وترك سكان الولايات عرضة للجوع والفقر والجهل والامية والاستبداد وارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة وكثرة الضرائب وبطش رجال الإقطاع ونفاق رجال الدين الذين كانوا يباركون سياسة السلطان والوزراء الولاة ويتملقون لرجال السلطة خوفا على ممتلكاتهم ومصالحهم الخاصة وما تدره الأوقاف عليهم. هذا الفرش التاريخي والسوسيولوجي هو الذي سيضيء لنا تجربة القباني وموضعها في سياقها الحقيقي.

يبدأ أبو خليل القباني باستقطاب أهل حيه وأصدقائه وجيرانه لعرض فرجته الدرامية في المنزل الذي كان يسكن فيه بدمشق. وستثير هذه الفرجة انتباه الناس إلى فنه الجديد الذي أبهرهم بروائعه الفنية. وبعد ذلك، سيبدأ القباني في تقديم عروضه المسرحية بعدما بدأ الناس يتعرفون على "مدرسه" الجديد الذي أخذه من الغرب ليستنبتة في تربة دمشق الفيحاء بعدما أن سبقه في ذلك مارون النقاش في لبنان. وكانت عروضه بالمقابل (دفع ثمن التذكرة)، إلا أن الذين كانوا يدفعون في البداية هم الفقراء والطبقة المتوسطة أما الأعيان وأصحاب النفوذ فكانوا لا يدفعون شيئا بل يسببون أحيانا في تعكير الجو وإثارة الشغب والفتنة داخل الصالة. وبعد انبهار الناس بمسرح القباني بدأ أصحاب الكراكيز ورجال الدين (أبو أحمد وسعيد الغبرا) يعارضون مسرح أبي خليل القباني لأنه يتناقض مع مصالحهم الشخصية ومآربهم الخاصة ولاسيما أن كراكوز أبي أحمد لم يعد يثير انتباه الناس وبدأت أرزاقه تقل وكذلك حلقة الشيخ الغبرا تقل وأوقافه تنقص. لذلك، سلطا كل غضبهما على القباني ومسرحه الجديد، إذ اعتبراه بدعة وكفرا وضلالا ابتدعه الأجنبي وماخورا ينتشر فيه الفسق والعصيان وتكثر فيه الرذيلة وسوء المروءة، خاصة أن مسرح القباني كان مسرحا شاملا فيه الحكايات القصصية والغناء والرقص والشعر والطرب وكل الفنون الجميلة الساحرة التي تبهر العيون والأذان.

" أبو أحمد: ما يفعله القباني وزبانيته، العمى لا تجد اليوم على أسنة الناس إلا حديثه أينما ذهب يرددون لك الأعاجيب عن حفلته وبراعته، وهذا الفن الذي ابتدعه.

أنور: أمس حضر الوالي حفلته وكان شديد الرضى.

أبو أحمد: أي نعم... واليوم استأجر ابن القباني كازينو الطليان، ليقدم عليه مسأخره... ولكن لا عتب عليه، إذا كان حضرة الوالي بكل هيئته ومكانته يأتي فيبارك هذه الشعوذة ويحض عليها.

أنور: ما يفعله ابن القباني ليس شعوذة، فهو يتدرب ورفاقه على فن يتقدم كل الفنون. أبو أحمد: أنت تقول ذلك يا أنور أفندي... وما هو هذا الفن الراقي؟ كم صوتا يستطيع أبو خليل القباني أن ينطق؟ وكم شخصا يستطيع أن يحرك؟ وكم بابة أو فصلا يستطيع أن يؤلف؟ الفن

ليس لعبة أولاد.
أنور: كراكوز شيء والمرسح شيء آخر. ومن المهم أن يظهر في الشام جوق للتمثيل... وأن
يقام مرسح لتقديم الروايات.
عبد الرحيم: أتخشى أن يسرق ابن القباني الزبائن؟
أبو أحمد: أنا أخشاه! خيمة الكراكوز ليست بنت الأمس.. إنها أقدم من أجداد أجدادنا وقد كانت
دائما الفن الذي لا يضاهاى... لكن ما يقلقتني هو أن يقام مكان علني للمسخرة ولا أسمع من
يعترض.
أنور: لا تغلظ يا أبو أحمد... هذه ليست مسخرة ولا شعوذة.. في البلاد المتمدنة يعتبرون
المرسح أرقى الفنون وأعلاها شأنًا والناس يعاملون أجواقه بما يليق من الاحترام
والتقدير... لهذا لا يجوز أن تظل الشام مقتصرة على خيمة الكراكوز، ومحرومة من
المراسح ومنافعها" (3).

وسيدفع أبو أحمد صديقه الشيخ سعيد الغبرا للوقوف في وجه أبي خليل القباني ومسرحة باسم
الدين والفضيلة بعدما انتشرت في البلاد البدع والأمراض والأوبئة والمحن والجفاف
والطاعون مما أثر على الناس سلبا. ولكن كان يلاحظ أن الولاة الأتراك كانوا يقفون بجانب
القباني ويشجعونه على فنه الجديد ويعتبرون ذلك مظهدا من مظاهر الرقي والتقدم والتنوير؛
مما دفع القباني إلى بيع أملاكه لبناء مسرح كبير في وسط دمشق يقدم فيه عروضه التاريخية
والغرامية لتوعية الناس وتهذيبهم ونشر الأخلاق ونقد نواتهم. لكن الغبرا سيعكر عليه أجواء
مسرحه وسيتهمه بالكفر لانسياقه وراء البدع الضالة:
"القباني: خير... ما الخبر؟

الشيخ سعيد: أنت أدري مني بالخبر... تترك ذكر الله في حلقات الجوامع لتقيم حفلات ماجنة
تنافي الأخلاق والآداب وتعاليم الدين.
القباني: أستغفر الله... لا يا شيخ... ربما أثرت فيك نميمة جاهل... لكن لو رأيت بنفسك ما نقدم
في المرسح لما قلت ما تقول.

الشيخ سعيد: لعلك تريدني شاهدا للمبازل وشريكا فيها!
القباني: حاشا... لسنا من أهل المبازل والمجون... ما نقدمه يا شيخ روايات فيها حكم بالغة
ترغب في اكتساب الفضيلة، وتقدم للمتفرج مواظ حميدة.. كل هذا في جو من الأناج
اللطيف والسرور البريء.

الشيخ سعيد: متى كان الفجور يرغب في اكتساب الفضيلة! هل تجهل أن التشخيص
كالتصوير، كلاهما حرام في الدين؟
القباني: على قد علمي ودرسي لا أعرف أن في الدين ما يحرم التشخيص، ربما لم تعرف
البلاد الإسلامية هذا الفن قبل اليوم، لكن ذلك لا يبرر أن نبقي محرومين من فوائده.
الشيخ سعيد: لم يعرفه المسلمون، لا لجهل، وإنما لأنهم أنفوه واعتبروه مخالفة للدين... إن هو
إلا بدعة، وكل بدعة حرام.

محمود: ليت شيخنا لا يتعجل الحكم.
القباني: يا شيخ.. هناك أمور كثيرة لم يكن يعرفها أسلافنا، استحدثتها تقدم الحياة، فصارت
منفعة للعباد... فهل يجوز أن نعتبرها محررات... ونضيع ثمارها؟

الشيخ سعيد: التقدم الصحيح هو أن نستعيد فضائل الأسلاف وقوة إيمانهم بدينهم. القباني: والله تلك غاية تأتي بالنسبة لنا في المحل الأول، فما نريد إلا استثارة الحمية في الصدور واستعادة فضل الأسلاف وصراتهم القويم، وفي البلاد الأخرى يجعلون للمراسح أهمية كبرى، فينفقون عليها الأموال الطائلة، ويشيدون لها المباني الفاخرة لعلمهم بأنها ترفع الهمم، وتدفع إلى ما ينفعهم كأفراد وأمم.

الشيخ سعيد: بعد قليل ستجعل المسرح كرواق العلم في الجامع، قد تكون هذه البدعة موجودة في البلاد الأورباوية، ولكن أتريد أن نتشبه بالكفار... من تشبه بقوم فهو منهم... لم يبق إلا أن نأخذ ديننا عن الإفرنج.

القباني: أستغفر الله.. لا يصح أن تتهمنا بالكفر... المسرح ليس بدعة أو كفرا، بل هو وسيلة طيبة لتهديب الأخلاق... ومعرفة طرق السياسة... في الظاهر يترجم الأحوال والسير وفي الباطن يقدم المواعظ والعبر" (4).

ومع إصرار القباني على مواصلة فعله التنويري عن طريق المسرح وتشجيع الولاة له، دفع الإقطاعيون وأبو أحمد سعيد الغبرا للجوء إلى السلطان عبد الحميد الثاني الذي قمع كل الحريات وعطل الدستور الإصلاحي قصد التشكي مما فعله مسرح القباني من نشر للرذيلة وانتشار البدع الضالة في نفس الوقت الذي كان الأحرار السوريون قد بدأوا في المطالبة بالاستقلال وتأسيس المدارس للتنوير وتوزيع المناشير التي تدعو الشاميين للانفصال عن الدولة العثمانية المستبدة والمريضة والضعيفة على جميع المستويات. فنشرت الدولة العثمانية في عهد سلطانها المستبد جواسيس في الولايات العربية ولاسيما سورية لتعقب المواطنين والإصلاحيين. وهكذا، سيتم القبض على أنور وعبد الرحيم وسينقلان إلى الآستانة قصد التطهير والتعذيب. وفي نهاية الأمر، سيعود الشيخ الغبرا بعد قضاء مصالحه ومآرب أصدقائه من رجال الدين ورجال الإقطاع إلى دمشق مصطحبا قرار هدم مسرح القباني وإحراقه وتتبع صاحبه باللعنات وأدعية الرجم والسب والقذف. وبذلك، انتهت حياة المسرح التنويرية في سورية لينتقل القباني بمسرحه إلى مصر حيث وجد حرية كبيرة لإبداعه الجديد والتقرب من الوطنيين الأحرار الهاربين من بطش الحكومة العثمانية وخطرسة السلطان المستبد.